﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: 131]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ شَهادةِ إقرارِ الجنِّ والإنسِ على كُفْرانِهم، بكَوْنِ اللهِ لا يَظلِمُ أحدًا

بعدَ أنْ شَهِدَتِ الإنسُ والجِنُّ - وهم في أرض المَحشَر - على أنفُسهم أنَّهم كانوا كافرين؛ وأكَّد السِّياق القرآنيُّ تلك الشَّهادة، أتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾، أي: إنَّ ما أصاب أهلَ القُرى من الإهلاك، إنَّما هو جزاءُ ما فعلوه، ولَمْ يَكُنْ عذابُ اللهِ لهم ظلمًا، وهذا هوَ العَدْلُ وَالحقُّ والواجِبُ[1]، وقد اعترفوا على أنفُسِهم بكُفرِهم، وعُدْوانهم، وإنكارهم لرسالات الأنبياءِ، وما جاءَتهُم به رُسُلُهُم مِنَ الحَقِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُهۡلِكَ﴾: أصلُ الهَلاكِ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[2]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيْءُ، هَلاكًا وهُلوكًا ومَهْلِكًا، إذا ماتَ؛ فهو هالِكٌ[3]، والإهْلاكُ: إعْدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإماتَةُ الحَيِّ[4]، والمَهْلِكُ: مَصْدَرٌ ميميٌّ مِنْ أَهْلَكَ الرُّباعي. والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ تَصيرُ عاقِبَتُهُ إلى الهَلاكِ[5]، وتُطلَق أيضًا على فَقْدِ الشَّيْءِ مع وُجودِهِ مع غَيْرِهِ، ومَصيرِ الشَّيْءِ إلى حيثُ لا يُدْرَى أين هو[6]. والمقصود في الآية: الاستئصالُ والإفناءُ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(3) الجوهري، الصحاح: (هلك)، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 6/1935.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/أ82.
(5) الخليل، العين: (هلك)، والأزهري، تهذيب اللغة: (هلك).
(6) المطرزي، المعرب: (هلك).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أخبر اللّهُ تعالى أنَّ ذلك الإنذارَ والإعذارَ مِن قِبَلِ الرُّسُل في الدُّنيا واقِعٌ؛ من أجل أنَّ ربَّك - يا محمَّد ﷺ - لم يكُنْ ليُهْلِكَ أهلَ القُرى بكُفْرِهم ومعاصيهم، والحالُ أنَّهم غافِلونَ، لم يُنبَّهوا برسولٍ ولا بكتابٍ، بل لابدَّ من إزالةِ الغَفْلَةِ أوَّلًا بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزال الكُتُب، ومعلومٌ أنَّ هلاكَ الأُمم يكون بما يغلِب عليها مِن الظُّلم أو الفِسق والفُجور، الَّذي يُفْسِدُ الأخلاقَ، ويقطعُ روابط المجتمع، ويجعلُ بأس الأمَّة بينها شديدًا.

اللـه تـعـالَى لا يُـعـاجِـلُ قـومًا بالهلاكِ والعُقوبةِ، حتّى يَـبـعـثَ إليهم رَسولًا.

فَذَلِكَ الإعذارُ بإرسال الرُّسُلِ إلى الإنْسِ والجنِّ، لِئَلَّا يُعاقَب أحدٌ على ما جَنَاهُ، وهو لم يُرْسَل إليه رسولٌ، ولم تبلُغْهُ دعوةٌ، فلَم نُعَذِّبْ أُمَّةً من الأمم إلَّا بعد إرسال الرُّسُل إليهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

بلاغة الفَصلُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أنَّ الآيةَ متَّصِلَةٌ معنًى بما قَبلَها؛ فذلك الَّذي قَصَصْنا عليكَ من أمرِ الرُّسل، وأمرِ عذاب مَنْ كذَّب؛ لأنَّه لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى بظلم، أي: لا يهلكُهم حتى يبعثَ إليهم رسولًا[2]. فَفي الآية بَيانٌ لِوَجهِ الرَّحمَة والعَدلِ في إرسال الرُّسُل، وأنَّه سبحانه كَتَبَ على نَفسِهِ الرَّحمةَ، فهو الرَّحيم بخلقِهِ: مؤمِنهم وفاجِرِهِم، فلا يُعذِّبُ أمَّةً منهم إلا من بعد إنذارِهم، وإيصالِ الرِّسالاتِ إليهم، ثمَّ سجَّل بعد ذلك على النَّاس بأنَّ له الحقَّ والعُتبَى في إهلاك تلك القرى التي عاندتِ الرُّسلَ، وعارضتِ الرِّسالاتِ بعد التَّبصير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُجَرَّدًا عن حرفِ الوَصلِ (الواو)؛ لاتِّصال

إرسَـالُ الرُّسُـلِ للـهدايَةِ، سُنَّةُ الله في خَلْقِهِ؛ ومَـنْ أعـرضَ عنها هَلَكَ

(1) مجموعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 145.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 2/79.

المعنى بالآية السَّابقة، فذلك الَّذي ذُكِر من إتيان الرُّسُل، يَقُصُّون على الأمم آياتِ اللّه؛ إنَّما هو لغاية ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾. وهي سُنَّة اللّه في خلقه.

تَوجيهُ الافتِتاحِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

إرسَـالُ الرُّسُلِ بأمرِ اللهِ، أمرٌ عظيمُ الجَدوَى، وما دونَهُ شَقاءٌ

الأصلُ في أسماء الإشارة أن يُشارَ بها إلى الأشياء المحسوسةِ، واستِعمالُها فيما سِوَى ذلك هو من المَجاز، والفائدة هُنا من اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو تَنزيلُ المَعقولِ مَنزِلَةَ المُشاهَدِ المَحسوس، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر في إتيان الرُّسل - ﷺ - وهم يقُصُّون على الأمَم من الإنسِ والجنِّ آياتِ اللّهِ مبيَّناتٍ. ولـمَّا ذكر سبحانه إقامةَ الحجَّةِ على الكافِر في المَعاد بالرُّسل - ﷺ - علَّلَ إرسالَهُم ترغيبًا وترهيبًا، وحثًّا على اتِّباعهم، وتنبيهًا وإرشادًا فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمرُ العظيمُ الجدوى هو أنْ أرْسَلْنا الرُّسُل[1]، فيكون اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ قد أفادَ تعظيمَ شأنِ المَقولِ بعدَهُ، ويكونُ خبرَ مُبتَدَأ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك، وذكر أبو حيان قوله: "الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى أقرب مذكورٍ دلَّ عليه الكلامُ، وهو إتيانُ الرُّسل قاصِّينَ الآياتِ ومنذرين بالحشر والحساب والجزاء؛ بسبب انتفاءِ إهلاك القرى بظلم، وأَهْلُها لم ينتهوا ببعثةِ الرُّسل إليهم والإعذار إليهم، والتَّقدُّم بالإخبار بما يحلُّ بهم، إذا لم يتَّبعوا الرُّسلَ"[2].

بَيانُ وُجوهِ الحَذفِ في مَطلَعِ الآيةِ:

إرسَـالُ الرُّسُلِ لـلإنـذار، أمـرٌ عظيمُ الآثارِ

اسمُ الإشارةِ فيه ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أنَّه مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ، أي: ذلك الأمرُ. الثَّاني: عكسهُ، أي: خبرٌ لمبتدأ محذوف، بمعنى: الأمرُ ذلك، كما يدلُّ عليه ضميرُ الشَّأنِ المقدَّرُ بعد (أنْ)، وذلك لأنَّ هذا الخبرَ له شأنٌ، يجدرُ أن يُعرف. الثَّالث: أنَّه منصوبٌ بإضمار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/273.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/649.

فعلٍ، أي: فَعَلْنا ذلك[1]، وإنَّما يظهر المعنى إذا عُرِفَ المُشَارُ إليه، وهو يحتمل أن يكون: إتيانَ الرُّسل قاصِّين الآياتِ ومنذرين بالحشر والجزاء، وأنْ يكونَ: ذلك الذي قَصَصْنا مِنْ أَمْرِ الرُّسل، وأَمْر مَنْ كَذَّب، ويحتمل أن يكون إشارةً إلى السُّؤال المفهوم.

دَلالةُ ﴿أَن﴾ بين المُخفَّفَةِ والنَّاصبةِ:

وجملةُ: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ تعليلٌ، أي: الأمرُ ما قصَصْناهُ عليكَ، لانتفاء كون ربِّكَ مُهْلِكَ القُرى بظلم، على أنَّ: ﴿أَن﴾ يجوز أن تكونَ النَّاصبةَ للمُضارع، على معنى: أنَّ المسألةَ: ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، أو أَنْ تكونَ المخفَّفَةَ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، و﴿لَّمْ يَكُن﴾ في محلِّ رفعٍ: خبرُها[2]. وذلك لأنَّ هذا الخبرَ له شأنٌ يجدر أن يُعْرَفَ، وحُذِفَتْ لامُ التَّعليلِ الدَّاخِلَةُ على ﴿أَن﴾، والتَّقديرُ: ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنا، أو الأمرُ ذلك؛ لأنَّه - أي: الشَّأنُ - لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى، أو الأمرُ ذلك لأجل أنْ لم يكن ربُّك متَّصِفًا بالظُّلْم[3].

استِحالةُ إهلاكِ القُرَى وهُمْ غافِلونَ عنِ الحقِّ

وقولهُ: ﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾ يجوزُ فيه وجهان، أحدهما: أنَّه على حذف لام العلَّةِ، أي: ذلك الأمر الَّذي قَصَصْنا، أو ذلك الإتيانُ، أو ذلك السُّؤالُ لأجل أن لم يكن، فلمَّا حُذِفَت اللَّامُ؛ احتمل موضعُها الجرَّ والنَّصبَ، كما عُرِفَ غيرَ مرَّةٍ. والثاني: أن يكون بدلًا من ﴿ذَٰلِكَ﴾[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ النَّفْيِ بالتَّركيبِ: ﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾:

فائدةُ هذا التَّركيب ونُكتتُهُ: تأكيدُ النَّفي، والمعنى المُجرَّدُ لهذا التَّركيبِ: ما كان مُريدًا للفعل أو قاصدًا له[5]، ومعناهُ في الآيةِ

العَدلُ المُطلقُ للهِ وحدَه سُبحانه دونَ سِواه

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/81.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/80.
(4) السّمين الحلبي، الدر المصون: 5/155.
(5) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/204.

استحالةُ أن يأتي هذا الفعلُ من اللّهِ تعالى لأنَّه سبحانه عدلٌ لا يأتي منه ظلمٌ مطلقًا، فعدلُ اللّهِ مطلقٌ، ولا يكون العدلُ المطلقُ إلَّا مِنَ اللّهِ سبحانه.

التَّعبيرُ عن فِعْلِ الكَونِ بِصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿يَكُن﴾:

ومجيء الفعل ﴿يَكُن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾ بصيغة المضارع الدَّالِّ على الماضي، لفائدة جعلِ الأمر حاضرًا في أذهان النَّاس؛ أنَّ اللّهَ لا يظلم النَّاس، وأنَّه تعالى لا يُهلك القُرى إلَّا من بعد أن يُرسل إليهم رسولًا، ثم هم يُعرضون عنه، ويُنكرون عليه، ومِثال ذلك أيضًا قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: 168].

ضَـــرورةُ أن يكونَ عَدلُ اللهِ المُطلقُ، مُتمثِّلًا في أذهانِ النَّاسِ

نُكتَةُ إيثارِ لفْظِ الرُّبوبيَّةِ ﴿رَبُّكَ﴾:

في قوله: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ آثرَ ذِكْرَ الرَّبوبيَّة في خطاب النَّبيِّ ﷺ، إذ لم يقل: (ذلك أن لم يكنِ اللّه مهلك القرى)؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ رحمةٍ، ونفيٍ للإهلاك، فالرُّبوبيَّةُ في اللُّغة مبنيَّةٌ على معنى الرَّبِّ، والرَّبُّ هو السَّيِّد، والمُصلحُ، والمالكُ، والمُرَبِّي، والمدبِّر، وتَوحيد الرُّبوبيَّة هو الإقرارُ بأنَّ اللّهَ سبحانه هو ربُّ كلِّ شَيءٍ ومليكُهُ، فيكون كُلُّ شيءٍ بيدِهِ سبحانه ويَكونُ مصيرُ الخَلقِ بيدِهِ سبحانه فَناسَبَ معنى المُربِّي والمُدبِّرِ هُنا أنَّه سبحانه لا يُهلك القُرى بِظُلمٍ؛ إذ هو شأنٌ عظيمٌ من شؤونِ اللّهِ تعالى وهو شأنُ عدلِهِ ورَحمَتِه، وإظهارُهُ أثرَ ربوبيَّتِه على عبادِهِ بهدايَتِهِم إلى سُبُلِ الخَير، وعَدَمِ مباغَتَتِهِم بالإهلاك قبل التَّقَدُّمِ إليهم بالإنذارِ والتَّنبيه[1].

إظهارُ أَثَرِ رُبوبيَّةِ اللـــهِ تـعـالى عـلـى عِـبـادِهِ، بالهِدايَةِ، وأنّه لا يُباغتُ بالإهلاكِ

سِرُّ إضافَةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِ ﴿رَبُّكَ﴾:

المُخاطَبُ في هذا النَّصِّ هو رسولُ اللّه ﷺ، قال: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ﴾، ليُؤكِّد له في سياق الخِطاب، أنَّه سبحانه قد كانت قدرتُه

الـتَّـكـريـمُ والإيـحـاءُ بالمعيَّةِ، وأنَّ اللهَ مُربِّيهِ في كنَفِ حِمايتِهِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/80.

سابقةً ومُهيمنةً، فقد بيَّنتِ الآيةُ وجهَ الرَّحمة، ومقتضى العَدلِ في إرسالِ الرُّسُل، ممتزجٌ خطابُها بموعظةِ عَدَمِ التَّفريط بفرصة الحياة، المُكتَنِفَة بالإيمان بالرُّسل والدَّارِ الآخرةَ الَّتي هي دارُ السَّلام. والمَلمَحُ الآخرُ، أنَّ كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ أدَّت معنًى مهمًّا بالموازنَةِ بينَ رحمةِ اللّٰه، ورسالةِ رسولِه، فكلاهما رحمةٌ للنَّاس، وكأنَّهما يتعانقان في خطاب الرَّبِّ الأعلى لنبيِّه المعصوم؛ إذ نجد أنَّ كلمةَ ﴿رَبُّكَ﴾ مُكوَّنَةٌ من صفةِ اللّٰه بالرُّبوبيَّة، مضافةٌ إلى ضميرٍ مُعبِّرٍ عن النَّبيِّ الأكرم بضمير (الكاف) المُتَّصل، وفي هذا مُطلقُ التَّكريم والإيحاءِ بالمعيَّة وخصوصيَّة النَّبي في تَنَزُّلِ رحمةِ اللّٰهِ تعالى على النَّاس.

وقد تكرَّر هذا الأسلوبُ كثيرًا في سورةِ الأنعام بخطاب النَّبيِّ بصيغة ﴿رَبُّكَ﴾ وما في هذا الأسلوب من التَّطمين، ففي عنوان الرُّبوبيَّة إشارةٌ إلى أنَّ اللّٰهَ مُرَبِّيكَ في كَنَفِ حمايته.

بَراعَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعِلِ ﴿مُهْلِكَ﴾:

التَّعبيرُ بصِيغةِ (فاعل) للمُبالَغَةِ في نفْيِ الإهلاكِ على وجْهِ الدَّوامِ

وقد عبَّر باسم الفاعل ﴿مُهْلِكَ﴾ الَّذي جرى مجرى الفعلِ المضارعِ، متعدِّيًا إلى مفعولٍ؛ لأنَّه حالٌ، وذلك على حدِّ قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا﴾ [الزُّمر: 14]، وهو دالٌّ هنا على نفي حَدَثِ الإهلاك، المفيدِ معنى المبالغةِ، بنفي رسوخِ صفةِ الإهلاكِ فيه على وجه الدَّوام، والثُّبوت تنزُّهًا عن الظُّلم.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ: ﴿مُهْلِكَ﴾، و﴿لِيُهْلِكَ﴾:

لن تُهلَكَ قريةٌ أهلُها مُصلِحُون

قال تعالى هنا: ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ إذ لا رسالةَ بعد الإسلام، ولا رسولَ بعد النَّبيِّ الخاتم ﷺ، ولا كتابَ بعد القرآنِ الكريم؛ فلا غفلةَ مِن ثَمَّ. فلم يعبِّر بما يدلُّ على الاستمرارِ والتَّجَدُّدِ، فجاءَ بما يدلُّ على نفي الحدث.

وقال في هود: ﴿لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117] بصيغة المضارع، المؤكَّدِ بلام الجحود بوصفها أبلغَ في النَّفي؛

لأنَّ فعلَ الإصلاح دائمٌ إلى قيام السَّاعة، لا يقتصر على زمانٍ دون زمانٍ، فعبَّر بما يناسبُهُ من فعلٍ، ويُلمَح فيه الحثُّ على فعل الإصلاح، والسَّعي إلى تمثُّلِهِ منهجَ حياةٍ، وسبيلَ نجاةٍ.

إهلاكُ القُرَى بين الحَقيقَةِ والمَجاز:

العَذابُ ينزِلُ بأهلِ القُرَى أنفُسِهِم، أو بمَساكِنِهِم أو منازلِهم

وقوله: ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، بمعنى مُهلكِ أهلِ القُرى، وهو مجازٌ مرسلٌ، وعلاقتهُ الحاليَّةُ. وقيل: إنَّ الإهلاكَ وقعَ على ذات القُرى فلا يكونُ في الآية مجازٌ، والصَّوابُ أنَّ العذابَ ينزلُ بالقرى وبأهلها أنفسِهم؛ لأنَّ غضبَ اللهِ واقعٌ عليهم، لا على ذات القُرى بأبنيتها ومعالمها، قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف: 25]، فقال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾، ثمَّ بيَّن أنَّ المساكن قائمةٌ لعدم اعتبارها من قبيل الأشياءِ المقصودةِ في الدَّمار والعقوبة، فالمقصودُ بِأَهْلِ القُرى ابتداءً: أنفسُهم، وحياتُهم، وعلاقاتُهم، وأفعالهُم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ﴾ [النمل: 52]، فهلاكُ القريةِ ودمارُها يكون بدمار أهلِها، وعذابُ اللهِ تعالى ينزلُ بالقرى وبأهل القرى معًا، فلا يُفَرِّقُ بينهما، بل يجعلُهما رمادًا وشيئًا لم يكن، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: 59]، فهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لا يهلك القرى إلَّا بعدَ إرسالِ الرَّسول إليهم؛ لِيُبَيِّنَ لهم الحقَّ من الباطلِ، ولا يهلكُها إلَّا إذا كان أهلُها ظالمين لأنفسِهم بالكفرِ والمعصيةِ.

مَعنى (الباء) في قَولِه تعالى: ﴿بِظُلۡمٖ﴾:

الظُّلمُ وصفٌ مُلازِمٌ لأهلِ القُرَى، لا يَنفكُّ عنهم أبدًا

الباءُ في جميع أحوالها تفيدُ الإلصاقَ، قال سيبويه: "وباءُ الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاطِ"[1]، فقولهُ: ﴿بِظُلۡمٖ﴾، أي: إنَّهم

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.

ملتصقونَ بهذا الظُّلم ومقارفونَ لَهُ، ووالِغون فيهِ، على أنَّه لو أهلكهم - وهم غافلون، ولم يُنبَّهوا برسولٍ وكتابٍ - لكان ظلمًا، وهو متعالٍ عن الظُّلم سبحانه، وعن كلِّ قبيحٍ[1]. ويُزادُ معنًى آخرُ، فالباءُ هنا للسببيَّة، والتَّقدير: وما كان ربُّك مُهْلِكَ أهلِ القرى بظلمِ أهلِها، وأهلُها غافلونَ، فذِكْرُ أهلِها مرَّةً واحدةً في موضع بيانِ غفلتِهم عن الإيمانِ، فإن كانوا كذلك، ولم يأتِهم رسولٌ، فإنَّ اللّهَ لا يُهلكهم، فإن جاءهم رسولٌ، فعلَّمهم، وذكَّرهم، ونبَّههم، وأنذرهم، فلم يؤمنوا؛ حقَّتْ عليهم كلمةُ اللّهِ وعذابُه.

فائدةُ تنكيرِ ﴿بِظُلْمٍ﴾، في سِياقِ النَّفْيِ:

تَـنـكـيرُ الـظُّـلـمِ يَحتملُ معنَى الـصَّـغـائـرِ، أو الشِّركِ

وأفاد تنكيرُ الظُّلم في قوله: ﴿بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ التَّعظيمَ؛ إذ لم يكنِ اللّهُ ليُعذِّبَ القرى على أمورٍ هيِّنةٍ من الصَّغائر، وإنَّما يقع عذابهُ على ما وقعت فيه منَ الشِّركِ وإنكارِ الرِّسالات والإصغاءِ إلى شياطينهم من الجنِّ والإنس.

ويحتملُ معنى قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ التَّعظيمَ من أجل أن لم يكنْ ربُّك ليهلكَ القُرى بظلمِ أهلِها بالشِّرك، أي: بشركِ مَنْ أشركَ، وكُفْرِ مَنْ كفرَ من أهلِها، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: 13] ونحو ما يُشْبِهُهُ من الظُّلم في الأعمالِ والأحكام، وهم غافلون، فلم يكن يعاجلُهم بالعقوبةِ حتَّى يبعثَ إليهم من ينبِّهُهُم على حُجَجِ اللّهِ عليهم، وينذرُهم عذابَ اللّهِ يوم مَعَادِهم، ولم يكن بالَّذي يأخذُهم غفلةً، فيقولوا: ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ. **والوجه الثاني:** ذلك أنْ لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى بظُلم، فلم يكن ليُهْلِكَهُمْ دونَ التَّنبيهِ والتَّذكيرِ بالرُّسل والآياتِ والعِبَرِ، فيظلمُهم بذلك، أي: يظلمُهم بعدم إرسال الرُّسلِ، فيُهلكون، واللّهُ غيرُ ظلَّام للعبيدِ، والوجهُ الأوَّلُ لا شكَّ أنَّه أقوى[2].

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/63.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/563، ورضا، تفسير المنار: 8/94.

تَوجيهُ إعرابِ لَفظِ ﴿بِظُلْمٍ﴾:

مِـــنْ عَـــدلِ الـلـــهِ، أن لا يُعَاجِلَ الأقوامَ بالعُقوبةِ، حتَّى يبعثَ رُسلًا

"وأمَّا قولُه: ﴿بِظُلْمٍ﴾ ففيه وجهان، **الأوَّل**: بمعنى: (وما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى بسبب ظلمٍ أقدموا عليه)، **والثَّاني**: (وما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى ظلمًا عليهم)، وهو كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117]، فعلى الوجهِ الأوَّلِ يكون الظُّلمُ فعلًا للكفَّار، وعلى الثاني يكون عائدًا إلى فعلِ اللهِ تعالى والوجهُ الأوَّلُ أليقُ بقولنا؛ لأنَّ القولَ الثّاني يوهمُ أنَّه تعالى لو أهلكَهم قبلَ بعثةِ الرُّسُل لكان ظَالِمًا، وليس الأمرُ عندنا كذلك؛ لأنَّه تعالى يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولا اعتراضَ عليه لأحدٍ في شيءٍ من أفعاله"[1].

فيكون ﴿بِظُلْمٍ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ من ﴿رَبُّكَ﴾، أو من الضَّمير في ﴿مُهْلِكَ﴾، أي: لم يكن مهلكُ القرى ملتبسًا بظلمٍ، ويجوز أن يكون حالًا من القرى، أي: ملتبسةً بذنوبِهَا[2].

عِلَّةُ التَّصريحِ بالأهلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا﴾:

ذَكَرَ أهلَ القُرَى في مَـــوضِـــعِ الغَفْلَةِ، وقُراهُم في مَـــوضِـــعِ العَذابِ

وهُنا صرَّحَ بـ (الأهل) فقال: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، فذكرَهُم في موضع غفلتِهم، والغافلونَ لا يستحقُّون العذابَ، في حين أنَّه سبحانه لم يذكرْهم في موضعِ العذابِ والإهلاكِ، إذ قال: ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ فلم يُصرِّح بـ (أهل)، بل اكتفى بذِكْرِ قُرَاهُم وهي مواضعُ حلولهم، فجاءَ التَّعبير على سبيلِ المجاز المرسلِ، وعلاقتُه الحاليَّةُ، فلم يقل: (مُهْلِكَ أهلِ القرى بظلمٍ، وهم غافلون)، إذ جزَّأ التَّركيبَ (أهل القرى)؛ فذكرَ القُرى في مطلع الآيةِ لورود العذابِ، وذكرَ الأهلَ في خاتمتِها لورودِ الغفلةِ؛ وذلك تجنيبٌ لخلقِه من أن يُذْكَروا في مواضعِ العذاب، وإعانةٌ لهم على أن يَقوا أنفسَهم وأهليهم من عذابِ اللهِ، وهذا عنوانُ رحمتِه سبحانه لعباده جميعًا.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/161 - 162.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155 - 156.

وهنا إشارتانِ بيانيَّتانِ إحداهما: أنَّ اللّهَ تعالى ذكرَ هلاكَ القُرى، والهلاكُ نازلٌ على أهلها، ولكنَّه ذكرَ القرى، وحذفَ الأهلَ للإشارةِ إلى عمومهِ وشدَّتِه، وأنَّه لا قِبَلَ لهم. الثانية: أنَّه نصَّ على المحذوف في قوله: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، فكان المحذوفُ هنالك مذكورًا هنا، ونفى اللّه تعالى الغفلةَ عنهم عند نزولِ الهلاكِ بهم؛ إذ أنذِروا بالرُّسل والآيات[1].

وَجْهُ التَّعبيرِ عنِ الفاصِلَة باسْمِ الفاعِلِ المَجموعِ:

لا يُهلِكُ اللهُ النَّاسَ على ظُلمٍ، حتّى يَبْعَثَ فيهِمْ رَسولًا

وقولهُ: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ لَمْ يَكُنْ ليُهلِكَهُم بظلمهم، وهم غافلونَ؛ لَمَّا يأتهم رسولٌ ولا حُجَّةٌ، وقوله في هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]؛ فلم يكن ليُهلِكَهُم بظلمِهم، أي: بِشركهم ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾، يتعاطَون الحقَّ فيما بينهم، أو بمعنى: لم يكن ليهلكَهم بظلمٍ منهُ، وهم مصلحون[2]. وغافلونَ: اسمُ فاعلٍ جرى مجرى الفعلِ الماضي، ودلالتهُ هنا على الاستمرارِ، فما داموا غافلين، والمُرادُ بالغفلةِ هنا: عدمُ إرسالِ الرَّسول إليهم، وانقطاعُهم عن خبر السَّماء، فإنَّهم في مَأْمَنٍ من إهلاكهم بشركِهم، ومُسَوِّغُ ذلك أنَّهم لا يزالون في غفلتِهم عن الإيمانِ حتَّى يأتيَهم النَّذير، فإن أتاهم النَّذير، فلا غفلةَ ولا إعذارَ، والجمعُ دليلُ كثرَتِهم، أي: إنَّ أكثرَ أهلِها غافلون، والكثرةُ موجبةٌ عدمَ استحقاقِ العذاب.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيَةِ:

عِلَّةُ إرسالِ الرُّسل، هي تَفادِي إهلاكِ القُرَى بغتةً

وفي الآيةِ إيجازٌ؛ إذ عُلِمَ منه أنَّ اللّهَ يُهلك القرى المسترسِلَ أهلُها على الشِّرك، إذا أعرضوا عن دعوة الرُّسل، وأنَّه لا يهلكُهم إلَّا بعد أن يرسل إليهم رُسلًا منذرين، وأنَّه أرادَ حمْلَ تَبِعَةِ هلاكِهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2676.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/355.

عليهم؛ كي لا يكونَ للنَّاس على اللّه حجَّةٌ بعد الرُّسل، ولا يبقى في نفوسِهم أن يقولوا: لولا رحِمَنا ربُّنا، فأنبأنا، وأعذر إلينا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [طه: 134]، أي: قَبْلَ محمَّدٍ ﷺ، أو قَبْلَ القرآنِ ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: 134]، فاقتصر من هذا المعنى على معنى: أنَّ علَّةَ الإرسالِ هي عدمُ إهلاكِ القرى على غفلةٍ، فدلَّ على المعنى المحذوف[1].

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بين آية الأنعام (131)، وهود: (117):

لا يُـترَكُ النَّاسُ سُـــدًى، ولا عُـذْرَ لمُعْـرِضٍ أو مُتغافِلٍ

هنا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ وقال في سورة هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117]؛ فقال في الأولى: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، وقال في الثانية: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117]؛ والفرقُ بين الموضعَين: الإشارةُ إلى ما تَقَدَّمَ ذكرُه مِنَ العقابِ في قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128]، وبعدَهُ قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: 130]، فقدَّم سبحانه ذِكْرَ بعثةِ الرُّسل للجنِّ والإنسِ وإنذارِهم وتذكيرِهم بالآياتِ وتعريفِ الخلقِ بالجزاء الأخرويِّ على مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: 15]، فلا عذْرَ لأحدٍ، وقد أشارَ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ﴾ [المائدة: 19] فلا عُذرَ لمعرضٍ أو مُتغافلٍ إن جاء البشيرُ والنَّذير ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ فهذا مناسبٌ، وتقدَّمَ آيةَ هودٍ قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/82.

مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: 116] ولو كانوا ينهونَ عن الفسادِ في الأرضِ؛ لكانوا مصلحين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117] فلم يكونوا؛ ليُؤخذوا بالعقابِ، فقد ناسب كلًّا من الآيتين ما أعقبت به[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الغَفلَةُ) و(السَّهْوُ) و(النِّسيانُ):

الغفلة عمَّا يكونُ، والسَّهوُ عمَّا لا يكونُ، والنِّسيانُ أخصُّ منهُما

قوله: ﴿غَٰفِلُونَ﴾، التَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ: والتَّغَفُّلُ: خَتْلٌ عن غَفْلةٍ، وأَغفَلْتَ الشَّيءَ: تركْتَهُ غُفْلًا. والغُفْل: المُقَيَّدُ لا يُرجى خَيْرُهُ، ولا يُخشَى شرُّهُ، والجميعُ الأغفالُ[2]. وأغفالُ الأرضِ، أي: المجهولةُ الَّتي ليس فيها أثرٌ يُعرف، وكتاب غُفْلٌ: لم يُسمَّ واضعُه[3]. وبلادٌ أغفالٌ: لا أعلامَ فيها يُهتدى بها[4]. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: 28]. والمُغَفَّلُ الَّذي لا فطنةَ له. والأغفالُ: الأمواتُ. والغفلةُ تكون عمَّا يكون، والسَّهو يكون عمَّا لا يكونُ، تقول: غَفَلْتُ عن هذا الشَّيء حتَّى كان، ولا تقول: سهوْتُ عنه حتَّى كان، لأنَّك إذا سهوتَ عنه لم يكنْ، ويجوز أن تغفُلَ عنه، ويكون، وفرقٌ آخرُ هو أنَّ الغفلةَ تكونُ عن فعلِ الآخَرِ، تقول: كنتُ غافلًا عمَّا كان من فلانٍ، ولا يجوزُ أن يُسْهَى عن فعل الآخر[5]. والسَّهوُ عدمُ التَّفَطُّنِ للشَّيء، مع بقاء صورتهِ أو معناه في الخيال أو الذِّكْرِ؛ بسببِ اشتغال النَّفسِ والتفاتها إلى بعض مهمَّاتها. والغَفلَة: عدمُ حضورِ الشَّيء في البال بالفعلِ، فهي أعمُّ من السَّهوِ[6]. والغفلةُ

(1) الغرناطي، ملاك التأويل؛ ص: 170 - 171.
(2) الخليل، العين: (غفل).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غفل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(5) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).
(6) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).

أعمُّ من النِّسيان؛ فهي عبارةٌ عن عدمِ التَّفَطُّنِ للشَّيءِ وعدم عقليَّتِه بالفِعل، سواءٌ بقيت صورتُها أو معناهُ في الخيال، أو الذِّكر، أو انمَحَتْ عن أحدِهما. وهي أعمُّ من النِّسيان؛ لأنَّه عبارةٌ عن الغفلةِ عن الشَّيءِ مع انمِحاءِ صورتِهِ أو معناهُ عن الخَيال، أو الذِّكر بالكلِّيَّة، ولذلك يحتاج النَّاسي إلى تجشُّم كسبٍ جديدٍ، وكلفةٍ في تحصيلِه ثانيًا[1]. ولذلك ناسبَ سياقَ الآيةِ لفظُ الغفلةِ دون غيرها.

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»